كيف فقدنا المرجعية الفكرية لتطوير التعليم* ؟

إذا كان من المتفق عليه بين أهل الاختصاص أن أى تطوير للتعليم يستحيل أن يتم ويكتب له الاستمرار النسبى ، والفلاح الغالب ما لم يستند إلى ما نسميه دائما " بالخريطة الفكرية " ، فلماذا لا نجد مواجهة حقيقية للإجابة عن السؤال المصيرى المعروف : من نحن ؟

فى تقديرى ، أن سببا مهما يبرز هنا للتو واللحظة ، ألا وهو أننا نعيش منذ السبعينيات ، وحتى الآن مرحلة يمكن أن نسميها " التيه الحضارى " .

فبغض النظر عن رأينا فى الخريطة الفكرية التى كانت تضبط مسيرتنا قبل ذلك بالتحسين أو التقبيح ، فإن الذى لا شك فيه أنه كان هناك وضوح فكرى فى المرجعية الفكرية للمجتمع المصرى ، فلما تم فك الارتباط بيننا وبين هذه المرجعية ، بدأنا مرحلة ارتماء فى الأحضان الأمريكية ، تلك المرحلة التى تمضى قدما فى التعمق والتنفيذ . ولأن ما بدأ يحدث ولا يزال يتناقض إلى حد كبير مع عمق الموروث الحضارى لمصر ، كان من الطبيعى أن ينتج الوضع رد فعل عكسيا ، فتظهر نزعات تطرف وغلو ، تماما مثلما نرى فى إنسان يركب مركبا تتقاذفه الأمواج والعواصف ، إذ نجده يزداد تمسكا وقبضا بيديه على ما لديه .

وهنا نجد توجها قد ظهر ينحو نحو الماضوية والعنف وضيق الصدر بالآخر ، فى مواجهة توجه بعض من تم لهم غسيل مخ فانبهروا بثقافة الغالب والغازى ، ودعم من هذا دعم الغازى لهم وإغراقهم بما يغرى من

---

* جريدة المصرى اليوم فى ٢٠٠٤/١٠/٢٥

مغانم مادية وغير مادية ، سرعان ما يقعدون لها ويبررون ما أصبحوا عليه بحكم ما توافر لديهم من براعة الكتابة ومهارة الجدل ، حيث إن الكثرة الغالبة منهم مثقفون ، يدعمهم عدد آخر من أصحاب رؤوس الأموال الذين يسعدهم هذا التوجه ويربحهم الكثير .

فكأننا نصبح أمام تيارين ، أحدهما يمثل يسارا جديدا يختلف تماما عن اليسار القديم ، لأنه يرتبط ارتباطا شديدا بتوجهات القوة المهيمنة ، والثانى يمثل يمينا متطرفا ، ووجود هذا وذاك لا ينفى ما كان سائدا أصلا طوال عصور خلت من توجه ينحو نحو الاعتدال والتوسط الذى عرفت به الشخصية المصرية معظم فترات تاريخها ، وخاصة بعد دخولها تحت المظلة الإسلامية .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد ، لما كان هناك شديد خطر ، فهكذا الخريطة الفكرية لدى كثير من الأمم : يسار ويمين ووسط ، لكننا نقع فى خطأ كبير لو سلمنا بهذا التفكير النمطى ، ذلك أن هناك من العوامل والأحداث ما كان له أثره فى مزيد من " التفتيت الفكرى " والشرنمة الثقافية .

فمن مآسى تاريخنا المعاصر أن حرب رمضان العظيمة التى ضربت مثلا نادرا فى مهارة التخطيط ودقة التنفيذ وشجاعة المقاتل المصرى وذكائه ، تنتج تحولا تاريخيا سيذكر التاريخ فيما بعد أنه مثل انحدارا مستمرا واستسلاما متواصلا لقوى البغى والهيمنة ، فقد سارت الأمور تدريجيا ليس نحو التوجه إلى الغرب فحسب ، بل وعلى طريق "العزل " و " الفصل " بين مصر ومحيطها الحيوى ، ألا وهو المحيط العربى ، وكأن هناك تناقضا بين أن تكون عروبيا ، وبين أن تكون منتميا ثقافيا لحضارة الغرب المعاصرة ، ممايشير إلى أن المسألة لم تكن دفعا لمصر نحو التوجه الغربى حتى تستنير بإضاءاته وتستهدى بعلومه وتقنياته

ونظمه المتقدمة ٠فوجود إسرائيل ومصلحتها ومستقبلها كان هـو ضـابط الإيقاع والموجه الأساسى لحركة الأحداث آلتي بدأت منذ دخول كسينجر ، وزير الخارجية الأمريكية فى عهد " نيكسون " إبان حرب أكتوبر ٠

ونحن رددنا ، وقبلنا الطعم ، بأن هذه كانت آخر الحـروب ، وأننـا مقبلون على عصر سلام ٠ وما كان هذا أبدا هو الأمر الذى قام فى العقل الإسرائيلى ، فهم يعون تمام الوعى أن الصراع مستمر ، وإن كان يمكـن ألا يخضع للتعامل العسكرى ، فهناك ألف وسيلة ووسيلة يمكـن بهـا أن نحقق انتصارا تلو انتصار : تثبيتا للوجود ٠٠مصالح جديـدة ، تمـددا ف النفوذ ٠٠فرصا لسياسات ٠

وحتى تحقق إسرائيل ذلك ،كان لابد أن تعزل مصر عـن مجالهـا الحيوى " العربى " ، وقدمت الأطراف العربية – بكل الأسى والأسف – ما ساعد إسرائيل ومصر على هذا التوجه نحو هذا العزل والفصل ، فلقد بـدأ العرب مرحلة الثراء الفاحش ، فى الوقت الذى وجد المصريون أنفسهم وقد مات منهم ألوف وألوف ، وخربت خزانة الدولة ، وعاشت ضيقا اقتصاديا خانقا ، بل وبدأت اصوات عربية تشعر المصريين بأنهم يمنـون علـيهم بالأموال ، وأنا واحد من الناس كنت أعمل فى إحـدى البلـدان العربيـة البترولية الكبيرة فى أواسط السبعينيات ، وكنت أسمع بأذنى – حتى مـن الأطفال – ما يدخل فى باب " المعايرة " بالفقر والشحاتة ، وإننا ما جئنا إلا لنتسول ، لا أن نعلم ونبنى ونعمر بأيدينا وخبرتنا ٠

وفضلا عن ذلك ، كان هناك فيض من اتهامات للـسياسة المـصرية بالتقصير والتخوين ، خاصة عندما قام السادات بهذه الخطـوة الدراميـة بزيارة القدس ، وبدأ التحادث المباشر مع الإسرائيليين ٠ وبدأت أصـوات مصرية تردد مقولة " كفانا حروبا " ، ونحن الذين نتحمل الدماء والخراب

عن العرب ، وهم يجنون الأموال والثراء ،وأنه لا فائدة ولا جدوى من الارتباط بهم .

ولأول مرة منذ سنوات طويلة ، بدأ النقاش يعود حول السؤال المصيرى : من نحن ؟

كان التفجير الجديد على يد ثلاثى من فحول المفكرين فى مصر ، توفيق الحكيم ، والدكتور لويس عوض ، والدكتور حسين فوزى .

وكان ذلك – فيما يبدو – لتهيئة الأذهان لما جرى من تحول بدءا بزيارة القدس ، فقد سمى لويس عوض ، أفكار الوحدة العربية والقومية العربية بأنها من الأساطير السياسية التى يجب التخلص منها . وطالب الحكيم بما سماه " حياد مصر " ، لا بين القوى الكبرى ،وإنما بين الدول العربية ، بما يعنى أن نكون " فى حالنا " لا نندفع للدفاع العملى عن قضاياها ومشكلاتها ، فيكفى ما لدينا من قضايا ومشكلات تتطلب التفرغ لمواجهتها .

وبالفعل تحقق ما تم رسمه ، وبدأت مصر تدير ظهرها لما كانت تقوم به من دور طليعى ، ريادى ، بالنسبة للدول العربية ، على الرغم من احتفاظها ببعض " الأشكال " الرسمية ، مثل المنظمات العربية ، لكنها . فعلا وواقعا ، بدأت تتجه اتجاها آخر يمسخ هويتها الأصلية ويقف بها عند حدود الذيلية والتبعية .

المرأة والتلفزيون*

نحن أمام ركنين من أركان حياتنا التى تتحدد بما يكون بيننا وبينهما من علاقات ، إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا لا قدر الله ..

المرأة والتلفزيون ...

فالمرأة هى التى وصفها الخالق سبحانه وتعالى بأنها سكن لنا نحن الرجال ، وبأننا كذلك سكن لها ، والسكن نسبة إلى " السكون " ، الذى يحمل معانى " الراحة " و " الاطمئنان " تحت مظلة حب ووئام ..هذه هى الفطرة ، وهذه هى سنة الله فى خلقه ، فإذا عبثت يد الإنسان بهذه الفطرة ، كما عبثت بالكثير من عناصر الطبيعة التى تحيط حولنا ، فتح على نفسه بالضرورة أبواب مشكلات وهموم عدة تبدد هذا السكون وتجعله أثرا بعد عين .

ولست فى حاجة إلى أن أسترسل فى بيان العلاقة بين النوعين : الرجل والمرأة ، فالحديث فى هذا الشأن مسطور بكثرة لا أظن أن موضوعا حظى بمثله ، وهو الأمر المثير للدهشة حقا ، فالضرورة التى يمثلها كل طرف بالنسبة للآخر ، هى مثل الهواء بالنسبة لكل كائن حى ، لكن المشكلة لا تكمن فى الاعتراف بهذه الضرورة ، بقدر ما تكمن فى " أولوية " طرف إزاء الآخر ، حيث درج الرجال عبر قرون ماضية على أن يحتلوا هم المرتبة الأولى فى الأولوية ، بما تضيفه هذه الأولوية لهم من سلطات وحقوق ، تصل فى بعض الأحيان إلى مستوى الهيمنة والتسلط والقهر .

وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا إلى رد فعل مساو له فى القوة

---

* مقدمة لكتاب عن الموضوع نفسه للدكتورة منى أحمد

ومضاد فى الاتجاه ، فإذا بأنهر من الكتابات والأحاديث تفيض بأفكار ومعان وكأننا أمام طرفين متحاربين ، يسعى الطرف الذى " ظُلم " طويلا أن يتصور خلاصه من الظلم فى صورة من العلاقة المغايرة للفطرة ، وتصور " للاستقلال " وكأن طرفا كان إزاء حالة استعمار واحتلال يريد أن يتخلص من سطوة المحتل المستبد .

وما هكذا يكون التشخيص ، وما هكذا يكون العلاج ، فالعلاقة علاقة تكامل ، لا تعطى لطرف حق الاستغلال والقهر والاستبداد على الآخر ، كما لا تعطى استقلالا بهذه المعانى التى يحاول البعض أن يروج لها ، فعلاقة التكامل تقتضى اعتمادا متبادلا .

أما بالنسبة إلى القضية الثانية ، ألا وهى قضية التلفزيون ، فحقا هو ساحر العصر وكأنه يملك عصا موسى ، أو كأنه مصباح علاء الدين ، يمكن أن يخرج جن منه ليدمر ويخرب ، أو يبنى ويفيض على صاحبه خيرا عميما ونفعا مبينا .

فإذا ما تأملت جيدا كيف أن هذا الجهاز يعمل الآن طوال أربع وعشرين ساعة ، وأنك تجد نفسك أمام مئات القنوات التى تبث من كل أنحاء العالم ، وأنك تستطيع أن ترى على شاشته الشيخ الذى يعظ ، كما تستطيع أن تجد المرأة اللعوب التى تثير الشهوات ...تستطيع أن تسمع منه المناقشات العلمية وحوارات حول القضايا الفكرية ، كما تستطيع أن تسمع وتشاهد السذاجة والسطحية ...تستطيع أن ترى ما يضحكك ، كما تستطيع أن ترى ما يبكيك .

فإذا كانت المرأة فى بلادنا قد عانت طويلا من عهود قهر وإهمال وتخلف ، وتواجه الآن ومستقبلا فريضة مشاركة فى التفكير والحكم والتسيير ، مما يقضى جهودا للتربية والتنشئة مضاعفة ، تفوق الجهود المبذولة بالنسبة للذكور ، تعويضا لسنوات التخلف الطويلة ، فكيف يمكن

أن نستثمر هذه الإمكانات الهائلة للتلفزيون فى تحقيق مثل هـذا الهـدف الكبير ؟

فوفق إحصاء عام ١٩٩٦ ، كان عدد الأميات ١١,٠٠٥,٧٤٦ مليونا ، أى ١ بنسبة ٦٢,٣٦ % ، فى الوقت الذى بلغ عدد الأميين الذكور فيـه ٦,٦٤٠,٢٧٩ مليون ، بنسبة ٣٧,٦٤ % ، وهى نسبة مفزعة فى عصر نتحدث فيه عن ثورة معلومات وقنوات فـضائية وثـورة التكنولوجيـا ٠٠٠إلى غير هذا وذاك من توصيفات ، جميعها تتناقض تناقضا تام مع هذا الوضع المزرى حقا !

وللمرأة فى مجتمع مثل المجتمع المصرى ، شرائح وفئات وبيئـات ، تتباين وفقا لها أحوالها وظروفها واحتياجاتها ٠

ولقد تعود كثير منا أن ينظر إلى المرأة فى الحضر على اعتبار أنها أسعد حظا من المرأة الريفية ، وأن المرأة التى تعمل ، أفضل مقاما مـن المرأة غير العاملة ، لكن هذا فى الأحوال العادية ، فما بالك بمجتمع درج على أن يقول ما لا يفعل ؟ وتحكمه العشوائية لا فى السكن كما قد توحى هذه الكلمة فى أذهان كثيرين ، ولكنها عشوائية التفكير التى نعنيها هنا ؟

فمع هذا الزخم غير المعهود فى الحـديث عـن حقـوق المـرأة وضرورة تطوير أحوالها ، تصور أولوا الأمر أن المسألة تقف عند حـد فتح المدارس أمام الإناث ، والسماح لهن بالخروج مـن البيـت للعمـل باعتبار ذلك حقا وليس منحة من الرجل ٠٠

إن هذا جيد فى حد ذاته ، ولكن ، ما لم يرتبط بحزمة من السياسات المرافقة ، فلربما انتقل إلى عكس ما كنا نتمنى ونرجو ، بحيـث ترتفـع أصوات تتزايد يوما بعد يوم بعودة المـرأة للبيـت ، وتـرك العمـل ، والاستغناء عنه !

ذلك أنك عندما لا تضع فى الاعتبار نشرا لدور الحضانة ورياض الأطفال ، فكأنك تضع على كاهل المرأة العاملة أثقالا تنوء بها الجبال ..

وأشد مرارة من هذا ، أن يتضاءل الجهد المبذول للخدمة التعليمية فى المدارس ، فإذا بالأم تجد نفسها مضطرة ، عندما يكون أولادها بالمرحلة الابتدائية ، وإلى حد ما بالتعليم الإعدادى ، أن تذاكر لهم ومعهم ، فور عودتها من عملها ، بحيث لا تتاح لها فرصة التقاط الأنفاس وحق جسمها فى الراحة !

وعندما تصبح المواصلات العامة قليلة ومزدحمة لزدحاما يجعل الراكبين والراكبات يواجهون وضعا غير آدمى ، فلابد أن ينفر كثيرون ثورة لكرامة زوجته وأخته وأمه وابنته ، عندما يراها محشورة هكذا فيما اصبح يوصف بأنه " علبة سردين " !!

كذلك فإن مفهوم المشاركة ما زال بعيدا عن ذهن كثير من الرجال ، وكأنها تقف فقط عند حد " المشاركة المالية " ، دون أن تمتد إلى مشاركة فى تحمل هموم البيت ، بكافة عناصرها ، ولعلنا نألف تلك الصورة التى نرى فيها كلا من الزوج والزوجة وقد عادا من عملهما ، ويجلس الزوج سلطانا فى انتظار أن تجهز له الزوجة الغداء ، ثم الشاى ...وهكذا !

وفى مشكلة المساعدة للأولاد فى المذاكرة ، يقع العبء أيضا على المرأة الحضرية العاملة ، وكأن تعلمها وعملها قد تحولا إلى لعنة تطاردها بحيث لا تتيح لها فرص الترفيه والراحة وخلو البال !

ومن أهم الدراسات التى تناولت هاتين القضيتين ، الدراسة التى قامت بها الدكتورة منى أحمد وحصلت بها على درجة الدكتوراه ، ثم تم طباعتها فى كتاب ...

ومن حسن الحظ حقا أن نجد باحثتنا الذكيـــة ، قـــد جمعـــت فـــى شخصها بين طرفى الموضوع ...

فهى " امرأة " و " عاملة " و " حضرية " ، ويكون موقـــع عملهـــا وموضوعه هو فى التلفزيون المصرى ...

فهى ليست إذن مطلة على الموضوع من شرفة القراءة فى البحوث والدراسات ، ولا هى " سمعت " عن مسائله ومشكلاته ، ولكنها " تسكن " الموضوع ، كما أن الموضوع نفسه يسكنها ، ويحق عند ذلك تذكر قول القائل :

لا يدرك الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

والقياس مع الفارق ...

أو كما قال جون ديوى فيلسوف التربية الأمريكى الشهير ما معنـــاه أن درهما من الخبرة خير من قنطار من القراءة ..لا تقليلا مـــن قيمـــة القراءة ، ولكن إعلاء من شأن الممارسة وتأكيدا على أهمية الخبرة " ولا ينبئوك مثل خبير " !

ولقد عمدت منى إلى تحليل مضمون البرامج التلفزيونية التى توجه للمرأة بصفة عامة ، بالإضافة إلى بعض البرامج التى تناقش موضوعات وقضايا تخص المرأة والتى تقدم على قنـــاتى التلفزيـــون الرئيـــسيتين ، الأولى والثانية ، خلال دورة تلفزيونية مدتها ثلاثة شهور بدأت من ١/١/ ٢٠٠٢ ، وانتهت ٢٠٠٢/٣/٣١ بنظام الحصر الشامل ، مما تطلب منها استخدام منهج المسح ، وفى إطاره استخدمت أسلوب تحليل المضمون ، وذلك للوقوف على مدى نجاح التلفزيون فى تلبية الاحتياجات التربويـــة للمرأة العاملة ومدى قصوره ، بهدف وضع تـــصور مـــستقبلى لـــدور التلفزيون يسمح له بتلبية هذه الاحتياجات للمرأة .

وقد حظيت الاحتياجات الصحية باهتمام برامج المرأة ، وكذلك حظيت الاحتياجات الاجتماعية باهتمام هذه البرامج ، حيث جاء إشباع هذه الاحتياجات فى المركز الثانى ٠

أما الاحتياجات الثقافية التعليمية فكان ترتيبها المركز الثالث وبنسبة متدنية لا تزيد عن ٦,٣ % ، وركزت فى معظمها على برامج محو الأمية التى تقدم هذه الخدمة ٠

ثم جاء الترتيب الرابع ليكون هو مركز الاحتياجات الاقتصادية ، وبنسبة ٤,١ % من إجمالى فقرات البرامج عينة الدراسة ٠٠٠إلى غير هذا وذاك من احتياجات وترتيب ٠

أما السيناريوهات التى اجتهدت منى فى بحثها ودراستها سعيا نحو التطوير الجاد لأوضاع البرامج التلفزيونية الخاصة بالمرأة وتفعيل قدرتها فى المساهمة فى النهوض بالمرأة ، فهى سيناريوهات جديرة بالنظر والاعتبار والتقدير ٠